قصة قصيرة

رجلنا الأعظم

للكاتب الارمني

وليام سارويان

ان الجنرال انترانيك نفسه يجلس في مكتب آرام للمحاماة ، في شهر تشرين الاول من عام ١٩٢٤ ، وهو يتحدث الي فعلا ، وقد كنت وقتها في السادسة عشرة، مع انني لم اسأله :

« كيف حالك ، يا سيدي ؟ »

انه رجل حسن الهيئة في أواخر الاربعين من العمر او بداية الخمسين ، وهو واحد من اشهرالارمنيين في العالم ، ان لم يكن اشهرهم قاطبة ، ولكنه يعيش الان في مدينة (فريزنو) ، ويرتدي بزة عادية ، وهو لايشبه الصورة التي كانت تزين بيت كل ارمني ، وتمثله وهو يعتلي صهوة جواده الابيض . انه يسير الان على قدميه، ولا يملك حتى سيارة خاصة به . ولقد انتهى نضال قواته المستميت من اجل الامة ــ لم ينته بالحياة او الموت ، بل انتهى هكذا ، وهو لا يفهم ماذاحدث .

وارمينيا بعيدة الان ، أبعد مما توضحه الجغرافيا او المسافات ، انها قطعة من روسيا الان ، وهي جزء صغير جدا ، قطعة لها طبيعتها الخاصة . انه لن يراها ، فقد تغير العالم ، وكذلك الناس ــ انهم يبدون احياء ، شكرا لله . وفي أرجاء العالم الفسيح ، ترى الارمن هنا وهناك يسعون وراء لقمة العيش ويكدون ، وهم ينسون بالوقت نفسه . ولقد حدثت منازعات شتى بين الحزبين الرئيسيين في (فريزنو) بخصوص الجنرال انترانيك، وظهر ذلك جليا في صحفهما واجتماعاتهما ، وفي المقاهي وحتى في المنازل الخاصة ، لانه حدث في نهاية القتال، وعلى طول خط المواجهة ، ان رفض الجنرال تلقي الاوامر من الرجال الذين قاموا بتشكيل حكومة أرمينيا الاولى ، والتي اصبحت حكومة ارمينيا **المستقلة** في النهاية ...

وقتها ــ وهذا ما يصعب تصديقه حقا ــ حارب ضد قوات تلك الحكومة فعلا .

أهذا ما يحدث ؟ أهكذا تجري الامور ؟ ايمكن ان يكون العدو الحقيقي هو شعبك نفسه ؟ ان تمسي نفسك العدو ؟ وعندما يتكلم انترانيك ، احس ان في صوته شيئا ما يشبه الغيظ الشديد ، الا انه تحول الان واصبح اقرب الى الاسف منه الى الغضب ، حزنا على اولئك الموتى جميعا ، ولامتهم العظيمة ، ومن اي طرف كانوا .

وهناك شيئان فقط جعلاني اشعر بالاعتزاز لكوني أرمنيا ــ الحجارة في الارض ، ووجه هذا الرجل ، انترانيك ، خصوصا عيناه . وليس بوسعي ان افهم هذا الامر : لانه كلما رأيت حجارة ضخمة في الارض أحسست بانني من ارمينيا ، ولقد اختبرت الاسف ، وعرفت الغضب ، الا انني لم اكن اعرف لماذا كنت حانقا والى اي شخص اوجه حنقي . ان صوت انترانيك عميق ، ولكنه يتكلم بنعومة وببطء ووضوح . وتؤدي كلماته كل ما يريد قوله بالضبط ، ولكن تلك الكلمات تقول اشياء أخرى ، مما يجعلني حريصا على سماعها .

تقول كلماته : « ان شقيق امك آرام لرجل نادر فعلا . كما تعرف . انه نشيط جدا ، سريع جدا ومستعد للخدمة والعمل، وهو ناجح في كل ما يقوم به، ومساعداته رائعة . ومن الممتع دائما أن أتردد على مكتبه ، لكي أراه واسمع صوته ، وألاحظ شدة الانتباه في عينيه ، ولاتأكد من انه ينشط للعمل في امريكا لصالحنا جميعا. ولكني مسرور لكوني قد أتيت في وقت لم اجده هنا ؛ بل وجدتك انت . » .

انني استمع له واراقب عينيه ، وانا افكر : « ماذا يقصد انترانيك بقوله هذا ؟»

ــ « أرى انك تحب القراءة . »

يقول ، وهو يلقي بنظرة الى كومة الكتب على طاولتي والتي قدمت بها من المكتبة العامة ، ومع ذلك، فانني اشعر حقا بانه يريد ان يتكلم عن شيء آخر .

ــ « نعم ، يا سيدي . »

ــ « والكتب ــ أهي كتب ذات نوعية جديدة ؟»

ــ « انني أقرأ كل شيء ، بالاضافة الى القليل من الروايات » .

وفي اللغة الارمنية ، تقوم كلمة (فيب) مقام كلمة الرواية ، والتي قد تعني القصة الخرافية والاختراع ومن الممكن ان تعني التزييف .

ــ « تاريخ ؟ شعر ؟ مسرح ؟»

ــ « العلوم . الفنون . الفلسفة . علم السلالات البشرية . الطب . وأي نوع اخر ».

ــ « لماذا تقرأ مثل هذه الكتب ؟»

ــ « انني لا احب هذا المكان . وعندما أقرأ فانني لا اشعر كثيرا بانني هنا ».

سألني :

ــ « أين تفضل ان تكون ؟»

ــ « حيثما يمكنني ان اكون على سجيتي فعلا . »

ــ « أليس من الممكن ان تكون على سجيتك مع الاخرين هنا ؟»

ــ « لدي عملي في مكتب التلغراف ، وانا استمتع به جيدا ، لانه يتيح لي فرصة رؤية الكثير جدا من أصناف البشر . وانا أنسجم مع الاخرين ، وربما كان هذا مرده الى انني أعرف كيف افعل ذلك ، وان باستطاعتي ان انسجم بطريقة ما مع اي شخص في اي مكان . ولكني اكره القسوة ، والتي اصادف الشيء الكثير منها هنا » .

ــ « أيكون شكل القسوة جسديا ؟ مثلما يضرب الاب ابنه ؟ او ما يفعله الرجل الغاضب بحصانه ؟»

ــ « أحيانا ، ولكن الشكل المؤلم جدا من القسوة ليس الجانب الجسدي الذي أشهده . ويبدو ان البريء دائما هو الذي ينال القسط الاوفر منه ، وليس بامكاني ان أفهم لماذا ؟» .

انه ينظر الي من خلال عينيه الحانيتين كما لو انه يراني لاول مرة ، واتساءل اذا كان يود اخباري بما كان يعتمل في داخله بعد كل هذا الحديث .

ــ « من الصعب فهم بعض الامور » .

يقول ، ثم يتوقف وينتظر ، وربما كان يفكر اذا كان عليه ان يتابع . ثم يخرج علبة صغيرة من الدخان المصري من جيبه ، ويلتقط لفافة ، يشعلها ، يستنشق رائحتها بعمق ، ويأخذ باطلاق الدخان من جوفه ببطء شديد .

ــ « كانت لدينا اسبابنا الموجبة ، طبعا . وما قاموا به ضدنا ، فعلناه بدورنا ــ ضد ابريائهم . حسنا، ان البراءة تعتبر قومية بحد ذاتها وتقف على قدميها لوحدها ، وضد كل القوميات الاخرى . لا تملك البراءة حكومة ، ولا فلسفة سياسية ، ولا عرقا ولا دينا ، وكل ما تملكه هو الشعب فقط . حاولت في البداية ان امنع جنودي ــ حاولت أن اشرح لهم باننا لا نستطيع ان نقيم بلدا خاصا بنا على دماء الابرياء وعظامهم ، من جانبنا ام من الطرف الاخر . وكان العقاب لمثل هذا النوع من القتل هو الاعدام ، واضحت مسؤوليتي المخيفة ان اكون القاضي والجلاد في الوقت نفسه . وكان على الجيش الصغير الذي يعتمد في بقائه على الكر والفر ان يتزود بمؤن وعتاد ، وحيثما وجد ذلك لا بد وان يأخذه . ولكنك عندما تقتل ولدا في الحادية عشرة او الثانية عشرة وهو يحتضن كيس قمح ، والذي يعني الحياة له ولاخوته واخواته ، فمن تكون قدقتلت بذلك سوى ابنك ذاته ؟ واذا ما قتلت الرجل الذي قتل الولد ، فمن تكون قد قتلت بذلك سوى أخيك ؟ وتوقفت المحاكمات شيئا فشيئا وكذلك تنفيذ حكم الاعدام ، واستمر قتل الابرياء ، بل وازداد حدة . ثم اتى دور الرجال والنساء كبار السن، أيضا ، وبعد ذلك كل شخص في قرية بأكملها ، وازهقت ارواح الكثيرين في قرية تلو الاخرى ، وكل ما احتجنا له ، واستطعنا حمله ، أخذناه معنا . لقد فعلنا ذلك . انا فعلته بنفسي . كان علينا انتقوم بذلك ، كان علي ان افعل ذلك ــ او يكون مصيرنا الفشل كلية . ولكن بعد ان ارتكبنا ما ارتكبناه ــ وهذا ما أؤكد عليه ــ وبعد ان فعلنا ذلك فشلنا كلية . »

« لا تكف عن الكلام . » هذا ما أفكر به عندما يصمت . « اكراما لله ، دعنا نعلن الحقيقة ولو كانت مرة ، ودع الاخرين يكذبون ــ ثم فلنمت او نحيى او نمتلك هذا العالم الحقير . »

انه يحدثني ويخبرني عما حدث عندما يأتي آرام ويدخله معه الى مكتبه ويغلق الباب .

وبعد مضي عشر دقائق او خمس عشرة ، يذهب الجنرال انترانيك ، ومن غيران يلقي ولو بنظرة اخيرة ناحيتي ، ويقول آرام :

ــ « كما ترى ، يا ويلي ، لقد وجدت في هذه الارض لفعل الخير . »

وانا اعرف انه قد حرر شيكا وسلمه الى انترانيك، وانا مسرور لانه قد قام بذلك ، وفخور لانه اخ لامي ، وقد استطاع ان يفعل ذلك .

ـ « انه رجلنا الاعظم .» يقول آرام . « ولكن ، يا له من امر محزن لرجل على شاكلته ألا يكون شيئا يذكر الان ! كم مضى عليه هنا قبل ان اصل ؟»

ـ « قرابة ساعة ، كما اعتقد. »

ـ « حسنا ، ماذا قال ؟ هل جلس هنا فقط ، ام ماذا ؟»

ـ « كلا ، لقد تكلم . »

ـ « لمدة ساعة كاملة ؟»

ـ « نعم .»

ـ « حسنا ، عن اي شيء كان يتحدث ؟»

ـ « لقد تحدث عنك . انه معجب بك ويحبك حبا جما .»

ـ « لا بأس . باستطاعتك الان ان تفهم ما كنت طوال هذه السنين احاول ادخاله الى رأسك العنيد . ها هنا اعظم رجل لدينا في هذه الدنيا ، وبالرغم من عظمته ومنجزاته ، بمن تراه يعجب ويحب ؟ انا !! ان آرام ساروبان اسم لن ينسى طالما بقي أرمني حي على وجه هذه الارض . لم اكن املك شروى نقير عندما اتيت الى هذه البلاد . والان ... انني املك كل شيء . الشهرة . الثروة . واسما عظيما .»

انه يهمس الان ، كما هي عادته عندما يكون موضوع حديثه عن عظمته .

ـ « حاول أن تصبح مثلي ، يا ويلي . فعندما كنت في مثل سنك ، لم اجلس وآخذ بقراءة الكتب وكتابة القصائد . بدات اركض . فعليك ان تركض ، يا ويلي . اركض !»

وركضت خارج المكتب ، وهرع ورائي وهو يصرخ:

ـ « ليس الان ، ايها المغفل . وليس بهذه الطريقة!»

ومرت سنة او سنتان ، ومات الجنرال انترانيك في مدينة (فريزنو) وفي ذلك الوقت تغير كل شيء ، ولم يبد ان لموته كثيرا من الاهمية ، مع ان الدموع كانت تترقرق في مقلتي آرام عندما قال :

ـ « لقد فعل حسنا في تركه لهذه الدنيا . هذا العالم ليس بالمكان المناسب لرجل مثله .»

ترجمة فاروق هاشم
حمص ـ سوريا

دار الآداب تقدم

الثلج يحترق

رواية بقلم

ريجيس دوبريه

في هذه الرواية ، يقفز مؤلف « ثورة في الثورة » الى الصف الاول من الروائيين الفرنسيين المعاصرين ، فينال أخيرا « جائزة فمينا » المشهورة تقديرا لموهبته وفنه .

و « الثلج يحترق » قصة رجل وامرأة ، بوريس وايميلا ، يبحث أحدهما عن الآخر ، فيلتقي به ثم يضيعه ، ثم يلتقي به ثانية ، ويحن اليه ويفقده ، عبر أوروبا وأميركا . في النضال والعذاب والموت والقتل . من أجل حب البشر .

اختارت ايميلا ، ابنة جبال النمسا ، أن تقاتل من أجل العدالة . وتلتقي في هافانا بشاب فرنسي ، بوريس ، نجا من ثورة أخرى ، فتسحره ، ولكنها تحب زعيما ثوريا ، هو كارلوس ، وتذهب فتعيش معه في « لاباز » ، في الخفاء والفرح ، الى اليوم الذي تغتاله الشرطة البوليفية . وتفقد ايميلا كل شيء : الرجل الذي تحبه ، والطفل الذي تنتظره ، والمعركة التي تخوضها ، ولكنها لا تترك الدرب الذي سلكته ، فمن كوبا الى التشيلي ، ومن بوليفيا الى انكلترة ، ومن باريس الى همبورغ ، تضطلع بقدرها حتى النهاية . قدر المرأة المناضلة .

ان « التاريخ » يسكن قصة هؤلاء الابطال . فهو لحمهم ، وعذابهم ، وألمهم . ان سعادة بوريس وايميلا مستحيلة ، ولكن أناسا آخرين سيكونون يوما ، بفضلهما ، أقل شقاء .

ان هذه الرواية أغنية حب في مأساة عصرنا . توكيد ارادة للحياة وللنضال .